تعزيز الوسطية وتحقيق الأمن الفكري
ومكافحة الغلو والتطرف والإرهاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وبعد : مما لا شك فيه أن ديننا الإسلام دين توسط واعتدال، لا غلو فيه ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، وشريعة الإسلام أنزلها الله على الناس جميعًا بأشكالهم وألوانهم وأعراقهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ثم ميز رسوله صلى الله عليه وسلم من يحمل هذه الوسطية بين فِرَقِ المسلمين، فقال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه مسلم.

وأهم ما يعزز الوسطية:

الالتزام بمنهج السلف الصالح، والتمسك به، والعَضّ عليه بالنواجذ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث العرباض بن سارية:

قال العرباض: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» [رواه الترمذي].

فالرسول صلى الله عليه وسلم وعظ وذكر ترغيبًا وترهيبًا صحابته الذين هم أفضل الخلق بعد الرسل، حتى إن موعظته صلى الله عليه وسلم خافت منها قلوبهم، وبكت حتى ذرفت منها عيونهم، فخافوا أن تكون آخر وصية يوصي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويودعهم لما فيها من القوة، ولذلك قالوا: أوصنا، وهذا من حرص الصحابة وفقههم أن

استغلوا هذه الفرصة ليوصيهم بما فيه خير، فأوصاهم بتقوى الله تعالى(١)، بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه، وهذا حق الله تعالى(٢).

ثم قال: «والسمع والطاعة» وهذا حق بين الناس مع حاكمهم، «وإن تأمَّرَ عليكم عبد»، يعني: وإن كان الأمير عبدًا فاسمعوا له وأطيعوه، وهذا مقتضى عموم الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

قال: «فإنه من يَعِشْ منكم» أي: مَنْ تطول حياته «فسيرى اختلافًا كثيرًا»، وهذا هو الداء الذي ينبغي أن نحذره بالدواء الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «فعليكم بسنتي» أي: نلتزم سنته وطريقته ومنهجه.

قال: «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» أي: تمسكوا والتزموا طريقة الخلفاء الراشدين الذين هداهم الله لطريق الحق، قال: «عضوا عليها بالنواجذ» كناية عن شِدَّةِ التمسك بها، وهو العض عليها بأَقْصَى الأضراس.

ثم قال: «وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كُلَّ بِدْعَة ضلالة» أي: احْذَرُوا ما أحدث في الدين من أمور بلا دليل شرعي.

وهنا إشارة في قوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» أن التمسك بهما عِصْمَة من الاختلاف والتفرق والفتن.

وهنا ملاحظة وهي: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر سُنَّتَيْنِ: سُنَّتَهُ وسنة الخلفاء الراشدين، ولكن الضمير بقوله: «عضوا عليها» يدل على أنها سنة واحدة، وأن التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين واجب بمعنى: أن لو تركنا التمسك بها نأثم.

قال تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فالرضا المطلق للسابقين الأولين، والرضا المشروط لمن بعدهم بمتابعة سنتهم ومنهجهم، ومفهوم المخالفة: أن من لم يتبع سبيل السابقين لا يحصل له الرضا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء: ١٣١]

(٢) أي: حق بين العبد وربه.

فِي شِقَاقٍ﴾ البقرة: ١٣٧]، قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ﴾ أي: أنت يا محمد وصحابتك، فَقَدِ اهتدوا.

ومفهوم المخالفة: أن من لم يؤمن بمثل ما آمن به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته فقد ضل، إذن هنا الأمر واجب أن يكون إيماننا كإيمان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] هنا: الذنب والمعصية: المشاقة وهي سلوك غير طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور الشرعية.

اتباع سبيل غير المؤمنين: وهذا ملازم للصفة الأولى، والذنب الأول المشاقة؛ أي: يكون في الأمور الشرعية ليس على هدي السلف الصالح.

وهنا: العقاب: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي: إذا سلك هذا الطريق جازَيْنَاه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجًا له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِن حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: مصيره النار في الآخرة؛ لأن هذا هو جزاء من خرج عن الهدي، واتباع ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وسلفه الصالح.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» الحديث.

قال النووي رحمه الله: الصحيح أن قرنه صلى الله عليه وسلم الصحابة، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم وقوله: «ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» [شرح النووي على مسلم ١٦/٨٥].

قال ابن الجوزي رحمه الله في كشف المشكل (١/٢٩١): يعني أنهم لا يتورعون في أقوالهم، ويستهينون بالشهادة واليمين.

ولذلك تجد من يحلف بالله وهو كاذب لأجل مصلحة الدعوة والحزب، بل منهم من يسرد قصته ويحلف عليها أيمانًا أنها حدثت وهو يكذب وإنما لمصلحة الحزب، فمنهج السلف هو سيفك الذي يجب أن تكسر غِمْده؛ أي: لا ترده في جيبه أو جرابه.

سؤال: عند اختلاف الفهوم نتحاكم إلى أي فهم؟

بمعنى: هل نتحاكم إلى فهم العالم الفلاني؟ أو الحزب الفلاني؟

الجواب: نتحاكم إلى فهم الصحابة (السلف الصالح).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا فَبَعَثَهُ بِرِسَالَاتِهِ وَانْتَخَبَهُ بِعِلْمِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابَهُ فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَبِيحٌ»» [أخرجه الطيالسي في مسنده وصححه عدد من العلماء وبعضهم حسنه].

قال حذيفة رضي الله عنه: كل عبادة لم يتعبَّدها أصحاب محمد رضي الله عنهم فلا تعبدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا بطريق من كان قبلكم [رواه ابن المبارك في الزهد: ٤٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج: أتيتكم من عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: المهاجرين والأنصار، ومن عند ابن عم النبي رضي الله عنه، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم [رواه النسائي: ٨٥٢٢] راجع مناظرة ابن عباس للخوارج في ص....

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «قف حيث وقف القوم، وقل كما قالوا، واسكت عما سكتوا، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا» [رواه أبو داود: ٤٦١٢].

قال الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، واسلك سبيل السلف الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم» [الآجري في الشريعة: ٢٩٤].

ويقول الإمام أحمد: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله رضي الله عنهم والاقتداء بهم» [أصول السنة: ١٤].

المقصود من هذه الآثار أن الفهم الصحيح لنصوص الكتاب والسنة: هو الفهم الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم بمجموعهم، وما اتبعه عليهم التابعون وأتباعهم، وأن كل فهم للكتاب والسنة يخالف ما كانوا عليه بمجموعهم فهو خطأ لا محالة.

سؤال: لو قلنا: فهم الصحابة ليس بحجة!

الجواب: لفرح بذلك أهل البدع من الخوارج والرافضة وغيرهم. وخذ على ذلك أمثلة:

المثال الأول: الخوارج كفروا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقالوا: إن الله أنزل في شأن علي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وصوبوا ابن ملجم، وقالوا: إن الله أنزل في شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ واللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فقتله ابن ملجم، وفي ذلك يقول شاعرهم عمران بن حطان:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

بل كفر المسلمين بآية وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وابن عباس يقول: إنه ليس بالكفر الذي تَذْهَبُون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن ملة ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كُفْر دون كفر.

المثال الثاني: قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

فَهِمَ أهل القبور من هذه الآية جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، وهذا خطأ ونَقْص في فهمهم، ولم يفهم منها أحد من السلف إلا المجيء إليه في حياته ليستغفر لهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُم رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

فمن عادة الصحابة معه صلى الله عليه وسلم: أن أحدهم متى صدر منه ما يقتضي التوبة، جاء إليه فقال: يا رسول الله فعلت كذا وكذا، فاستغفر لي.

وسؤالنا: هل كان الصحابة يأتون قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه المغفرة أو جلب الرزق وغيره؟

المثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

فَهِمَ منها بعضهم أن النفور والأمر به هو الخروج لتبليغ الدعوة، وترك الأهل والمال والولد، وهذا خطأ جَمّ وبُعْد عن الصواب، ولم يفهمها السلف الصالح بهذا الفهم، وإنما نزلت في غزوة تبوك عندما أمر الله تعالى المؤمنين بالنفور لغزو الروم وكان زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، حسن طابت الثمار والظلال.

ومن الأمثلة: كثرة البكاء في الخطب: لم يكن من هدي النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، وبعضهم يرى أن ذلك مؤثر، ولما سأل أحد المشايخ الكبار أحد الدعاة فقال له: نراك تذرف الدموع كثيرًا، قال: هي دمعة نحشد بها الجماهير، بل بعضهم قال: كنت أقدم لأحد الدعاة، وكنت أقرأ أمامي وقفات كتبها هذا الداعية، فبعد كل ثلاثة أسطر كتب (هنا بكاء) الأمر الذي أثار استغرابي وآلمني؛ لأن هذا ليس من فعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «البكاء عشرة أجزاء: جزء لله وتسعة لغير الله، فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير».

قال حماد بن زيد رحمه الله: «كان أيوب السختياني رحمه الله في مجلسه، فجاءته عبرة، فجعل يتمخَّط ويقول: ما أشَدَّ الزكام!».

ولذلك لما نحصي مرات بكاء علمائنا نجدها تُعَدّ على الأصابع، فمثلاً: ابن باز أكثر من ستين سنة وهو في الدعوة، بكى مرة واحدة، وسموها: الدمعة البازية، فانشغلوا بالدمعة ولم ينشغلوا بدروسه وفوائده ونصائحه.

ومن الأمثلة: إضحاك الجماهير، حتى أصبح بعضهم ينافس المهرجين، والسبب: أخذ قلوب الناس، ولم يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ولا السلف الصالح هذه الطريقة، بل بعضهم يتكلم بكلام تستحيي أن تجلس مع أهلك لتستمع إليه! كلمات تخدش الحياء!!

ومن الأمثلة: استعراض الأخبار السياسية أثناء الخطبة، والأولى أن تترك للقنوات التي أشغلتنا وأصمت آذاننا.

ومن الأمثلة: بعض الخطباء يأتي بسيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه دون غيره من الصحابة، ولا شك أن سيرته تدرس وتنشر، لكنه يأتي بها ليقارن بين عمر بن الخطاب والحكَّام، بقصد أو بدونه ليثير الناس على حكامهم.

الإطالة في خطبة الجمعة، حتى إن بعض كبار السن ربما تبوَّل في مكانه، وهذا ليس من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا الصحابة؛ لأن الكلام الكثير ينسي آخر كلامه أوَّلَهُ.

قال أبو وائل: خطبنا عمار بن ياسر فأوجز، وأبلغ، فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفَّسْت -أي: أطلت- فقال: إن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا» رواه مسلم: ٨٦٩].

وصايا للخطباء:

١- أكثر من ذكر الأدلة من الكتاب والسنة.

٢- تجنَّبْ حشو الكلام وأخبار السياسة في الخطبة، ولا يضيرك قولهم أنك لا تفهم الواقع، وقد سمعت أحد الخطباء يقول: إذا أردت الشهرة، فاخطب من الجرائد السياسية.

٣- كن واضحًا شفافًا، واحترم عقول الحاضرين وفروقهم الفردية.

٤- أنصح بكتاب زاد المعاد لابن القيم، وخصوصًا: فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في الخطب.

جمعه /

محمد بن سليمان المهوس

الدمام ١٤٤٠/٣/٢٥هـ